نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله فى مدينة حمص - زهاء سنوات أربع - لم يفارقها قليلا إلا ليعود إليها.

وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون.

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير يطالبه فى حرب وسلمه حيث كان. فكان من أولاده نحو أربعين سنة الطاعون..

ولم تروا لنا كلمة قالها خالد فى موت هؤلاء الأبناء الكثيرين، وهو الرجل الذى كان التبشير بغلام عنده فرحا من أكبر أفراح الحياة. فكأنما ألف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب، فهو لا يلقاه لقاء غريب مريب.

ونعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون، وأشهرهم المهاجر من حزب على، وعبد الرحمن من حزب معاوية.. فمات المهاجر فى صفين، ومات عبد الرحمن مسموما على ما قيل، لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية العهد فسقاه معاوية السم على يد الطبيب ابن أثال..

وما هى إلا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير صاحب - الموت والقدر - فورث بالمدينة أحد أبناء أخيه.

وانتهت حياة خالد رضى الله عنه نهايتها العجيبة، بين سنة إحدى وعشرين واثنتين وعشرين.

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه - كما قال - بعد أن شهد نيفا وخمسين زحفا فى نجد والحجاز والعراق والشام، ولم يبق فى جسمه مصح[1] من كثرة الجراح.

وليس هذا كل ما فى موته من "غير المألوف" أو غير المنظور، فإنه مات

---

(١) المصح: الموضع السليم البرئ من العدل والأمراض.

ولم يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير، وليست هى بالسن التى تنتهى بها الحياة بغير مرض شديد. فإن كان قد ألم به مرض عارض غير مميت فى جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء، والفتور من الراحة، وذلك الاضطراب الذى كان يفزعه فى نومه، وينتقع منه لونه إذا غ ب أو ثار.

ولم يوجد فى بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفه للجهاد فى سبيل الله. فلما بلغ ذلك عمر قال: رحم الله أبا سليمان. كان على غير ما ظنناه به.. ونكس مرارا وهو يسترجع[1] كلما رفع رأسه. ثم قال: كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة[2].

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة. قال لأمه: عزمت عليك ألا تبيتى حتى تسودى يديك من الخضاب.

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر: أرسل إليهن فانههن فقال: "دعهن يبكين على أن سليمان ما لم يكون نقع أو لقلقة[3] على مثل أبى سليمان تبكى البواكى"

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال: لو أدركت أبا عبيدة ابن الجراح ثم ولينه ثم قدمت على ربى فقال لى: لم أستخلفه على أمة محمد؟.. لقلت: سمعت وخليلك يقول: لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح، ولو أدركت خالدا ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى من استخلفت على أمة محمد لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول لخالد: سيف من سيوف الله سله الله على المشركين؟

---

(١) يسترجع: يقول "إنا لله وإنا إليه راجعون".

(٢) سدادا لنحور العد الخ: من تسديد السهام أو الرماح فى صدور العدول، وميمون النقيبة: السجية والطبع، وهى أيضا المشورة، ومنها "هو ميمون.

(٣) نقع أو لقلقة: النقع: رفع الصوت وتتابعه، واللقلقة: الصوت فى حركة واضطراب، يقال "للذوائح لقلقة".

ولعمرى إن "سيف الله" قد استحق هذه التزكية وهو فى الغمد استحقها وهو مشهور.

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنا فى سيرة خالد بن الوليد، إن الحوادث قد وعظته بها فاتعظ فى صبر وأناة. فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة. ولو شاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه، وهو الرجل الذى طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين. معم إنه لا فتنة وابن الخطاب حى كما قال[1]، وإن الفتنة إنما تخشى "إذا كان الناس بذى بلى"[2] أو فى معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الأمام.

ولكن إدراك هذا وحده مفخرة من المفاخر، وليس كل إدراك كهذا الإدراك بالذى يغلب الهوى ويقمع النزوات.

فلا جرم يرشح الفاروق خالدا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة، ولا جرم يعرف سيف الله فى الغمد كما عرفه وهو فى يمين البطل الجسور. فان يكن خالد مخشى المزاحمة على الخلافة فى ظن من الظنون، فليس هو بمخشى عليها وقد وصلت إليه معهودا إليه خاصة من الزحام، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها، وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة[3] الشباب، وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية، وقرب ما بينه وبين الله.

لقد مات - نصير الموت - مطمئنا إلى نهاية حياته، لا يكره منها إلا أنها انتهت به على فراشه.

---

(١) راجع ص١٥٣.

(٢) بذى بلى: يقال "هو بذى بلى" إذا بعد عنك حتى لا تعرف موضعه، والمراد أن الفتنة تخشى إذا كان الناس يعيدين يأهم، أما ابن الخطاب فسكان يرعى رعيته، فهو دائما تريب منهم.

(٣) سورة الغضب: حدته وشدته. و"ريض": فعل مبنى للمجهول من "راض" أى درب ومرن.

ولكننا - أبناء آدم - نكره كثيرا ما يكون من حقنا أن تتمناه. وما كان لخالد أمنية قد بقيت له فى الميدان الكفاح يتمناها. لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع، ولم يبق له إلا أن يعرفوه فى ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور. وقد عرفوه على هذه الصفة فى ميدان حمص - ميدان السلم والتسليم - خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم، وتاريخه الخالد المقيم.

* * *